في غرفة تغسيل الموتى

١٢/٦/١٤٣٧هـ

تحدثتُ في المقالِ السابق عن بعض مشاهداتي في غرفة العناية المركزة، التي ترددتُ إليها بضعةَ أيام إبان مرض شقيقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم انتقلنا بعد وفاته إلى الغرفة الأخرى ألا وهي: غرفة تغسيل الموتى، أو كما يحلو لبعضهم تسميتها: غرفة إكرام الموتى.

تلك الغرفة التي تباعدك من الدنيا، وتدنيك من الدار الآخرة، وتَعِظك بصمتها العجيب، بل كل ما فيها يَعِظ! أكفانها، وأعواد الجنازة فيها، وأدوات تجهيز الميّت. تتوارد على ذهنك أسئلةٌ كثيرةٌ وأنت تقلِّب طرفَك في سقفها وجدرانها؛ يا تُرى كم جلس على هذه الأعواد مِن ميّت؟ مَنْ آخرُ شخصٍ غُسّل عليها؟ ومَنْ الميتُ القادم الذي ينتظر دورَه؟ أهو طفلٌ، أو شابٌّ، أو كهلٌ، أو شيخ كبير؟ أهو امرأةٌ، أو رجل؟ هل سيكون القادم شخصًا قد سبق موتَه مرضٌ ينبّهه، ويُوقظه، ويجعل له فرصةً للمراجعة؟ أو هو شخصٌ مات فجأةً دون مقدمات؟ سبحان مَن يَعلم!

حين تُغسّل هذا الميّت يلوح لك كمالٌ مِن كمالات الله، فتردِّد بلسانك وقلبك: سبحان الحيّ الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون!

وحين تغسّله، وتنظر في عناية الشرع المطهَّر بتنظيف الميّت، والعناية بتطهيره قبل دفنه، والتشديد على سَتر عورته، وتطييبه؛ تحمدُ الله على الهداية إلى هذه الشريعة المطَهَّرَةَ المطهِّرَةِ، التي تتفق مع الفطرة، وتُوجب العنايةَ بهذا الإنسان لا أقول: منذ ولادته؛ بل قبل ولادته حتى يُوارَى في الثرى.

وحين تُغسّل هذا الميت تتذكر أنه كما قدِم إلى هذه الدنيا عاريًا، لا يستطيع لنفسه ضرًّا ولا نفعًا؛ فهو كذلك حين يُغسّل، مهما كانت قوّته حالَ الحياة، يديره المغسّلون، ويقلّبونه، ويحرّكونه، لكنه هذه المرّة جسدٌ لا روح فيه، فأين المعتبر؟

ولئن كان هذا الميّتُ قدِم الدنيا عاريًا فسيغادرها كذلك إلا من ثلاثة أثواب أو خمسة، لا أكمام لها ولا أزرار، ولا سراويل، ولا قُمص!

ولو أنّ تاجرًا من التجار أوصى أن تكون الثيابُ التي يكفّن فيها مِن أغلى أنواع الأقمشة؛ لم ينفعه ذلك بشيء، فالقدوم على الله لا ينفع معه إلا ما قاله الله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

وحين تغسّلُ الميّت، فإنك تزداد يقينًا أن الموت هو الكأسُ التي لا بدّ مِن شربها، والبابُ الذي لا مناصَ من دخوله، فليت شعري كيف سيكون القدوم على الله منه؟ هل سنقدُم عليه وقد رضيَ عنّا أم لا؟ هل

نقْدُم عليــه خفيفةً ظهورُنا من الذنوب والآثام؟ أم ســنقْدُم وقد تحمّلنا أوزارًا ســنندم عليها لحظةَ خروجنا من قبورنا، يــوم يقوم الناسُ لرب العالمــين، ويوم يقــال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

إن هذه الغرفة لتنادي المتقاطعين: تصالحوا قبل هذه اللحظة!

وتقول لأبناء الستين والسبعين: ها قد وصلتم إلى معترك المنايا، فبماذا استعددتم لهذا المصرع؟

وتُنادي الشباب المفرّطين الذين يؤمّلون الستين والسبعين: اعتبروا! فكم ركِب عــلى أعواد الجنازة قبلكم من شــباب! هذا بســكتةٍ، وذاك بحادث.

إن من رحمة الله بعباده أن جعل النســيانَ للمُصَاب سببًا للسَّلوة، لكن الذي لا يصحّ: أن ينقلب هذا النســيانُ إلى غفلةٍ تجعل الإنســانَ يعاوِد برنامجَ التقصير والغفلة عن المصير، بل العاقل يستفيد من هذه المواقف التــي تمرّ به لتكون ســببًا في إصلاح آخرته، وترقيعِ مــا انفتق من ثياب الصلاح التي تخرّقت بذنوبٍ بينه وبين الله، أو بين عباده.